مقدّمة

هذا الكتاب هو سيرة عبد الجواد صالح، الرّجل الذي أمضى سبعة عقود من حياته مناضلاً في الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، منذ كان شابّاً يافعاً خلال أحداث النّكبة حتّى انسحابه وهو في التسعين من عمره، من عضويّة المجلس المركزي الفلسطيني مطلع عام 2020، احتجاجاً على المصير الذي آلت إليه منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية. غير أنّ دوره كان مهمّاً واستثنائيّاً، تحديداً في فترة النضال المبكّر ضدّ الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية، أي منذ أن كان رئيساً لبلديّة البيرة وحتّى إبعاده خارج الوطن بين عاميّ 1967 و1973. وإذ يغطّي الكتاب مسيرة حياته الممتدّة بأكملها منذ ولادته في أواخر عام 1931 وحتّى وفاته فجر الثالث والعشرين من آب/ أغسطس 2025، إلّا أنّه وبشكل خاص يركّز على هذه المرحلة المؤسِّسَة من تاريخنا الوطني، والغائبة نسبيّاً عن الكتابات الفلسطينية، رغم أنّها شهدت بلورة الوثائق والمبادئ والأفكار الأساسية التي أرست دعائم حركة المقاومة الفلسطينية بعد عام 1967، وأسهمت بدورها في رسم ملامح المشهد السياسي والفكري في المنطقة. من هنا، تسدّ هذه السيرة شطراً من الفراغ الناجم عن هذا الغياب، لتصبح على ما نرجو في مصافّ المصادر الأوّليّة عن هذه الفترة بعينها.

يسرد الكتاب قصّة حياة عبد الجواد صالح، بينما يستكشف، في آن واحد، المراحل التاريخيّة التي عايشتها هذه القصة، فسيرته تشتبك مع محطات رئيسة من التاريخ الفلسطيني: النكبة، الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة في الضفة الغربيّة خلال العهد الأردني، والاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربيّة، والجبهة الوطنيّة الفلسطينيّة، والثورة الفلسطينيّة في لبنان، واتفاقيّة أوسلو، وقيام السلطة الفلسطينية، ودوره وزيراً للزراعة لمدة عامين فيها، وأخيراً السلطة الفلسطينية بعد رحيل ياسر عرفات.

تسهيلاً للقارئ فقد قسّمتُ هذه المقدمة إلى أربعة أقسام: يُعرّف القسم الأول، دونما مبالغة أو تفخيم في غير محلّه، بشخصية عبد الجواد صالح ومسيرته الوطنيّة. بينما يتناول القسم الثاني الجوانب النظرية لفنّ السيرة الذاتية عربياً وعالميّاً، ويلقي نظرة على العوامل التي تحدّ من دور السيرة في العالم العربي، في حين يقدّم القسم الثالث نظرة نقديّة حول كتب السِيَر الفلسطينية. أمّا القسم الرابع والأخير فيوضّح الطريقة التي بُنِيَتْ فيها هذه السيرة، ويستوضح المشاكل والصعوبات التي واجهت مسار إنتاج هذا العمل منذ البداية.

من هو عبد الجواد صالح؟ وكيف تمّ إنتاج هذه السيرة؟

«إذا كنت لا ترغب في استكشاف الأنانية والغرور وحب الذات، فلا ينبغي عليك قراءة كتب السيرة الذاتية» هكذا كتب إتش جي ويلز في سيرته الذاتية التي نشرها عام 1934[1]، ومع ذلك فإنّ سيرة والدي التي أضعها بين أيدي القرّاء قد نجحت إلى حدّ بعيد في الحيد عن الغرور. ومن المعروف حرص كاتب السيرة بالعادة على مدّ جسر التعاطف مع صاحب السيرة،[2] فكيف عندما يكون هو ابن صاحبها؟!

ومع ذلك فإنني أزعم أنّ سيرة والدي التي أضعها بين أيدي القرّاء، قد بنيتها على منهج، يبعدها كل البعد عن التبجّح والغرور.

وإن كانت شهادة الابن تجاه والده مجروحة، ومن الطبيعي انحيازه له، فقد حرصت على أن تُبنى هذه السيرة بموضوعية، وعملت جاهداً لأتجنب الوقوع في هذا الفخ.

ومع ذلك، فإنّ من الإنصاف القول إنّ عبد الجواد صالح، وبحق، كان استثناءً بارزاً طوال مسيرته، هو وثُلّة محدودة من الشخصيّات الوطنيّة التي تميّزت بجرأتها وصراحتها، وقدرتها على الوقوف في وجه الظلم والظالم، مهما كان مصدره أو ثمن مواجهته، سواء أكان صادراً عن عدوٍّ غاشم أم عن صديقٍ ضالّ. وقد عُرف بعمق التزامه وصلابة مواقفه وبُعد نظره الاستشرافي، وهي صفات يدركها تماماً جيلٌ كاملٌ ممّن اقتربوا منه أو احتكّوا به أو تابعوا أفعاله وسمعوا عنها. ولعلّ هذه السمات تمثّل، في تقديري، الركائز الأبرز في شخصيته عند تناول نضاله الوطني ونشاطه العام بالبحث والتحليل.

قضى عبد الجواد صالح الشطر الأوسع من حياته السياسيّة الطويلة خارج المظلّات الحزبيّة والفصائليّة، وبعيداً عن الأطر التنظيميّة التي تقيّد الفرد وتصهره في

---

1 H.G. Wells, Experiment in Autobiography (Toronto, 1934), p. 347

2 على سبيل المثال، عندما كتب المؤرخ الأمريكي القدير توم ريكس سيرة المربي الفلسطيني خليل طوطح، تعمّد القفز عن بعض المثالب في شخصيته مثل قيامه بضرب التلاميذ. رغم أنّه كان عالماً بهذه الحقيقة، ناهيك عن استبطان التفوق الغربي وإخلاصه لطائفة الكويكرز التي لعبت الدور الرئيس في حراكه الاجتماعي. وهذا له علاقة بجانب آخر «خفي» عند إنتاج أعمال السيرة، وهو ضعف الكُتّاب أمام أفراد عائلة صاحب السيرة الذين يقومون بإعطاء أوراق صاحبها وتذكّراته ووثائقه للكاتب، فيشعر الكاتب نتيجة هذه العلاقة واختياره محرّراً لصاحب السيرة بالامتنان لذلك، وبنوع من «الدين» الذي يتوجّب سداده من خلال طمس بعض المعلومات التي قد تؤثّر سلباً على صورة صاحب السيرة من جانب، ومن جانب آخر تضخيم المزايا والإنجازات. انظر:

.Thomas M. Ricks. Turbulent Times in Palestine: The Diaries of Khalil Totah

مجموعها. وتجدر الإشارة هنا ، بدافع الصدق والموضوعيّة، إلى انضمامه ولفترة قصيرة ومبكّرة في شبابه لصفوف حزب «البعث العربي الاشتراكي»، قبل أن يهجره ناقماً على الأسباب التي أدّت إلى أدائه الهزيل في الانتخابات الأردنية عام 1956، رغم أنّه ظلّ طيلة حياته مؤمناً بمبادئ الوحدة العربيّة والعدالة الاجتماعيّة والحريّة، متمسّكاً بها، ووفيّاً لقيمها.

ترتبط الجرأة والصراحة في شخصية عبد الجواد صالح بالراديكالية والشجاعة الواضحة، ورغم إيمانه بالتعدّدية والوحدة الوطنية ونبذه للتعصّب الحزبيّ والفصائلي، فقد رفض اعتبار الرأي الذي يسوّغ الخيانة الوطنية وجهة نظر ضمن إطار التعدّدية. تميزّت شخصيته بالحدية والغضب في مواجهة ما اعتبره أخطاءً او ظلماً أو تقصيراً، وهو ما انعكس أحياناً على مواقفه السياسية، وحتى الشخصية، فلم يتوانى حتى عن العراك الجسدي في استخدام قبضته، وإن اقتصر هذا الأمر على مطلع شبابه.

***

تقودنا قصة حياة عبد الجواد صالح إلى تيار المستقلين، ودورهم في الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة الذي يُغَيّب لحساب الفصائل والأحزاب، هذا التيّار الذي لعب تاريخيّاً دوراً مهمّاً في كفاح الشعب الفلسطيني، ولمعت فيه أسماء عديدة لشخصيات وطنية مستقلة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: أحمد الشقيري، رشيد الحاج إبراهيم، منير الريّس، إبراهيم بكر، عبد الخالق يغمور، أحمد صدقي الدجاني، حيدر عبد الشافي، إدوارد سعيد، شفيق الحوت، ثلاثي آل الصايغ الإخوة فايز ويوسف وأنيس. وهو دور غُيِّب منذ عقدين على الأقل، ما ساهم بلا شكّ في تراجع فاعلية الأداء الوطني الفلسطيني.

تؤكّد سيرة عبد الجواد صالح على الدور الحاسم للفرد القائد والمسؤول في صناعة المشهد السياسي، والتأثير بقدرٍ ما على مسار التاريخ. حيث استطاع عبد الجواد صالح خلال عمله رئيساً لبلديةً مدينة البيرة، خلال بدايات الاحتلال الإسرائيلي، تغيير وجه المدينة وصناعة مجتمع محلي متماسك، وبثّ قيم تعاونية ووطنية تشرَّبها أهل المدينة والمنطقة. وأكثر من ذلك، استطاع استخدام موقع رئيس البلدية ليترك بصمات تاريخية على مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربية، رغم الظروف الصعبة لتلك الفترة.

وهـذا يقـود إلـى التـأكيـد علـى صحّـة ووجاهـة مقولـة «كمـا يكـون القـادة يكـون الرجـال» في مواجهـة مقولـة «كمـا أنتـم يولـى عليكـم». وعلينـا ألّا نُغفـل هنـا دور الظـرف التاريخـي الـذي حـوّل رؤسـاء بلديـات الضفـة الغربيـة بعـد احتلالهـا عـام 1967، بسـبب ظـروف سـنأتي علـى تفصيلهـا في مـتن هـذا الكتـاب، مـن أشـخاص يديـرون مؤسسـات محلّيّـة تُعنـى بشـؤون الخدمـات مـن بنـاء ومخططـات عمرانيـة وطـرق وصحـة وتعليـم وجمـع قمامـة إلـى قـادة ومسـؤولين سياسـيين مـن الصـف الأول لمجتمعاتهـم. وحـول البلديـات إلـى مركـز للدفـاع عـن حقـوق المواطـن في مواجهـة ظلـم الاحتـلال وأساسـاً للصمـود.

نبعـت جـرأة وشـجاعة عبـد الجـواد صالـح، التـي ميّزتـه طيلـة حياتـه، مـن طفولتـه. حـين اكتسـبت شـخصيته قوتهـا مـن إحسـاس عـالٍ بالكرامـة، وحـبّ لامتنـاهٍ لـلأرض، ورفـضٍ للقهـر والظلـم أيّـاً كـان مصـدره. لقـد كـان الأمـر هكـذا دائمًـا، ويبـدو بعـد كل هـذه السـنوات الطـوال أنّـه لا يوجـد شـيء يمكـن أن يغيـر في سـلوكه ومواقفـه وعنـاده. وهـذا ليـس مسـتغرباً، إذ تشـكّل الطفولـة واحـدة مـن أهـمّ ركائـز شـخصية الإنسـان، إن لـم تكـن الركيـزة الأهـمّ علـى الإطـلاق. وإذا مـا أجزنـا إمكانيـة التـأمّل الفلسـفي، فيبـدو أحيانـاً أنّ الإنسـان يقطـع رحلـة حياتـه كلّهـا بصفتهـا امتـداداً عارضـاً لمرحلـة الطفولـة الأصيلـة، حيـث الإدراك الأول لمعانـي الوجـود، والتجـارب الأولـى للحـواس، والانتمـاءات الأولـى للعائلـة والمكـان. حـول هـذه الفكـرة أورد جبـرا إبراهيـم جبـرا في مقدّمـة سـيرته الذاتيـة (البئـر الأولـى) والتـي تصـف طفولـة المؤلـف في القـدس وبيـت لحـم في فتـرة مـا بـين الحربـين العالميتـين عبـارة الشـاعر الإنجليـزي ووردزويـرث «الطفـل هـو والـد الرجـل»، ليؤكّـد علـى الـدور الحاسـم لمرحلـة الطفولـة في سـيرة الإنسـان ومـآلات حياتـه، باعتبارهـا المنبـع الـذي ينهـل منـه الإنسـان طيلـة حياتـه. ولا شـك أنّ اختيـار جبـرا اسـم «البئـر الأولـى» عنوانـاً لسـيرته هـو مـن وحـيّ هـذه الفكـرة.

في الفصـل الأوّل مـن هـذا الكتـاب، الـذي يتنـاول طفولـة عبـد الجـواد صالـح، نسـبر غـور علاقتـه المبكّـرة مـع عائلتـه، وخصوصـاً علاقتـه بأمـه، تلـك الأمّ الفلّاحـة الاسـتثنائية، التـي غرسـت في نفسـه منـذ نعومـة أظفـاره حـب الأرض والانتمـاء إليهـا، وأسـهمت بـدور محـوريّ في تشـكيل وعيـه المبكّـر وارتباطـه بهـا. وهـذا الفصـل مبنـيّ علـى نحـو خـاص مـن لغـة سـرديّة ذات طابـع أدبـي، وهـي لغـة تعـود بالقـارئ إلـى بلـدة البيـرة في زمـن مضـى:

زمن بلدة ريفيّة وادعة وجميلة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن المنصرم. وبالمثل نجد مكانة عالية موسومة برومانسية لافتة وأدبية لقصص الطفولة في سير ذاتية عدّة، منها على سبيل المثال سير إدوارد سعيد ويحيى يخلف وشفيق الحوت وأنيس الصايغ وغيرهم.

سيكتشف قارئ هذه السيرة جوانب لم تكن معلومة حتّى لأولئك الذين عرفوا عبد الجواد صالح عن قرب، كما سيطلّ القارئ على بعض الجوانب المهمّة والمغفلة من التاريخ السياسي الفلسطيني الذي لا نقرؤه في التاريخ الرسمي، إضافة إلى استكشاف السيرة لبعض جوانب النسيج الاجتماعي والثقافي في منطقة البيرة ورام الله.

***

بفضل دوره الوطني الكبير، أصبح عبد الجواد صالح بعد عام 1967 بسمعته الطيّبة، وصيته الحسن، مرجعيّةً، ليس على صعيد البيرة فحسب، وإنّما على صعيد منطقة البيرة ورام الله بأسرها، وفي كثير من الأحيان على صعيد وطنيّ. تُنبّهنا مسيرته، وكيف ارتقى ليصبح مرجعيّة وطنيّة في زمنه، مستنداً إلى موقعه رئيساً للبلدية، إلى موضوع غياب المرجعيات الوطنية على مختلف الصُعد في الداخل الفلسطيني (الضفة الغربية وأراضي 1948)، حيث المجتمع وعلى كل المستويات بلا راعٍ ولا مُوجِّه. ولا يقتصر هذا على دور المرجعيات السياسية، بل ينسحب على المرجعيات الاجتماعية والدينية والثقافية. ومن المؤسف أنّ هذا يعني إضعاف نسيجنا المجتمعي الذي يُفترض به مواجهة مخطّطات «التطهير الاجتماعي» الاستعمارية.[3]

علاوة على ذلك، وفي الإطار نفسه، فقد عرفت الحركة الوطنية الفلسطينية قامات كبيرة لم تلقَ الاهتمام الذي تستحقه، بل إنّها، في بعض الأحيان، اغتيلَت سياسيّاً من خلال التغييب حتّى قبل أن ترحل عن عالمنا، وفي كل الأحوال تم طمس دورها الكبير في النضال دفاعاً عن حقوق شعبنا، طال هذا «الاغتيال السياسي»

3 التطهير الاجتماعي (Sociocide) هو إطار ومفهوم نظري لصالح عبد الجواد ويعني التدمير الشامل للمجتمع الفلسطيني، ويستخدم ديناميات عدّة ضمن عملية مستمرة وثابتة ومتراكمة تتركّز في تدمير الاقتصاد الفلسطيني؛ القضاء على الروح والهوية الوطنية الفلسطينية؛ حرمان الفلسطينيين من حقوقهم السياسية والمدنية؛ تحويل الحياة اليومية للفلسطينيين، بكل تفاصيلها حتى الصغيرة، إلى سلسلة لا تنتهي من المصاعب والمحن. وهذا كلّه يخدم الهدف النهائي للاستعمار الاستيطاني الإحلالي الإسرائيلي: وهو التخلص من الفلسطينيين عبر تهجيرهم القسري أو «الطوعي».

شخصيات بحجم بسام الشكعة[4] على سبيل المثال، والقائمة تطول ومنها عبد الجواد صالح بالتأكيد.

يسهل تتبّع الدور الوطني والإصلاحي الذي لعبه عبد الجواد صالح في محطات عديدة وممتدّة، بدءاً من الإصلاحات التي أجراها في بلدية البيرة منذ أن تولى رئاستها بعد انتخابه في شباط/فبراير 1967، أي قبل أربعة أشهر فقط من وقوع البيرة تحت الاحتلال، فرغم قِصَر هذه المدّة إلا أنّه استطاع خلالها تخليص البلدية من مظاهر فساد شابتها. وفي جميع المناصب التي شغلها بعد ذلك، بما فيها حقيبة وزارة الزراعة، التي تسلمها بعد قرابة ربع قرن من إبعاده عن وطنه وعن رئاسة بلدية البيرة، ظلّ الفساد في «قانون» عبد الجواد صالح بمنزلة خيانة وطنيّة لا يجوز التساهل والتسامح معها إطلاقاً.

خلال أيّام حرب عام 1967، تصدّى عبد الجواد صالح بنفسه لمحاولة نزوح أعداد من سكّان مدينة البيرة، ولعب دوراً حاسماً في منع حدوث هجرة واسعة منها. وبعد وقوع الاحتلال، نجح عبد الجواد صالح في تحويل بلدية البيرة إلى مؤسسة شعبية فعّالة أدّت دوراً في مواجهة الاحتلال ومقاومته، وعملت على تعزيز ركائز الصمود بين الناس. كما ساهم في تعزيز مكانة جمعية إنعاش الأسرة (بقيادة سميحة خليل) ذات الدور الوطني والاجتماعي المشهود في منطقة البيرة ورام اللّه. وكان من القلّة القليلة الذين أدركوا مبكّراً جدّاً أهمّية مقاطعة المنتجات الإسرائيلية وبناء اقتصاد وطني فلسطيني تحت الاحتلال، بما في ذلك مقاومته عملية نزع الفلاحين الفلسطينيين من أراضيهم لتحويلهم إلى عمالة تابعة ومهضومة الحقوق في سوق العمل الإسرائيلي. وهذا أيضاً مرتبط بعلاقته الخاصة منذ طفولته بالأرض. كما استفاد من منصبه رئيساً للبلديّة في تعميم نموذج شعبي لمقاومة الاحتلال، يقوم على مبدأ العمل التطوعي.

ومنذ السنوات الأولى التي أعقبت احتلال عام 1967، تمثلت في ذهن عبد الجواد صالح فكرة تشكيل جبهة وطنية لمقاومة الاحتلال، وأجرى لهذا الغرض اتصالات

4 في أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينات أصبح بسام الشكعة الشخصية والمرجعية الوطنية الأولى في الضفة الغربية إلى حدّ إطلاق صحيفة الجيروزاليم بوست عليه وصف «الملك غير المتوّج للضفة الغربية». وبعد تعرّضه لمحاولة اغتيال في الثاني من حزيران/يونيو 1980 نال بسّام، الذي فقد كلتاساقيه في المحاولة، شعبية جارفة، غير أنّه سرعان ما تمّ طمس اسمه ودوره وتلاشى أثره إلى حدّ أنّ كثيرين تفاجؤوا عند وفاته في الثاني والعشرين من تموز/يوليو 2019 بأنّه كان لا يزال على قيد الحياة. لقد لعبت أطراف دولية وعربية وداخل منظمة التحرير نفسها دوراً في هذا التغييب. وللتدليل على ما قلته فمن بين 40 طالباً في السنة الثالثة من قسم العلوم السياسية/جامعة بيرزيت عام 2006 طرحت عليهم سؤالاً عمّا إذا كانوا يعرفونه، سمع طالب واحد فقط باسمه.

بعدد من الشخصيات المعروفة، لكنّ الفكرة لم يُكتب لها النجاح آنذاك بسبب عدم نضج الظروف. غير أنه نجح لاحقاً في أن يكون أحد المؤسسين الرئيسين للجبهة الوطنية الفلسطينية صيف عام 1973 رفقة مجموعة من القادة الوطنيين في الضفة الغربية وقطاع غزة.

كان موقف عبد الجواد صالح واضحاً منذ البداية وصلباً ضدّ «قنوات الحوار» التي فتحتها شخصيات سياسية فلسطينية في الضفة الغربية مع سلطة الاحتلال بعد عام 1967، بغض النظر عن دوافعها: نبيلة واقعية كانت أم انتهازية تُغلِّبُ المصالح الشخصية. وكان لسان حاله للاحتلال تجاه موضوع الحوار مع القادة المحليين وعلى رأسهم رؤساء البلديات: هناك عنوان واحد إن كنتم صادقين: عمّان. وظل وفيّاً لموقفه هذا من الأردن، حتى صدام المقاومة مع النظام الأردني (1970–1971) الذي أنهى حالة الوحدة بحالة «طلاق». ورغم ذلك فقد حافظ، كما تشير وثائق استرداده الناجح لفندق هيلتون في البيرة، التي سنفصل الحديث عنها لاحقاً، على «شعرة معاوية» مع النظام الأردني من أجل مصالح شعبه، رغم تغيّر العنوان.

يكشف التأمّل في المسيرة العامّة والفكريّة لعبد الجواد صالح عن سمات بارزة تميّزه: أسلوبه الحازم، وخطابه الإنساني، وتفانيه في خدمة القضايا الاجتماعية. والأهم من ذلك هو موقفه الراسخ والمستمرّ في مناهضة النزعة الاستهلاكيّة و«عبادة السوق» التي تهيمن على مجتمعاتنا الحاليّة. فقد كان دائماً يحثّ المحيطين به على التشبّث بالأرض، وممارسة مسؤوليتهم الوطنية في أبسط تفاصيل حياتهم، والتمسك بمبدأ الاعتماد الذاتي. هذه المبادئ الأساسية تكاد تختفي في زمننا الحالي الذي طغت فيه الأنماط الاقتصادية الاستهلاكية الجديدة، لا سيما في أعقاب السياسات (الفيّاضية) التي سادت في الضفة الغربية بعد عام 2006.

ولا ينتقص منه الإقرار بأنّ جزءاً من هذه الفلسفة استُمِدَّ من اطّلاعه على بدايات التجربة الصهيونيّة. هذه التجربة، بدورها، ركّزت على تأسيس مجتمع تعاونيّ قويّ ومتماسك، عبر بناء مؤسسات صلبة وقيادات متفانية، تتقبّل النقد والمساءلة ولا تخشى حرّية التعبير. وتسعى لتحقيق الانعتاق الذاتي، والاعتماد على النفس، ومنح الأرض أهمّية قصوى.

وكذلك اهتم عبد الجواد صالح بالأسرى بشكل خاص، ودعمهم من خلال عمله رئيساً للبلدية، وحرص قدر الإمكان على زيارتهم وتلبية احتياجاتهم. وعندما دفع ثمن نشاطه الوطني تحت الاحتلال بالإبعاد عن وطنه، رفض مباشرة البقاء في الأردن، على الرغم من العروض المغرية التي شملت منصباً حكوميّاً مؤكّداً ومرموقاً أو فرصة للعمل في التجارة. وبدلًا من ذلك، آثر مواصلة نضاله الوطنيّ، وقرّر الالتحاق بصفوف الثورة الفلسطينية في لبنان، حيث أصبح بانتخابه في المجلس الوطني الفلسطيني عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظّمة التحرير الفلسطينية.

بعد شهر واحد فقط من وصوله إلى لبنان، استشهد نجله «ماهر» ابن العشرين عاماً في معسكرٍ للتدريب تابع للثورة الفلسطينية، وبالتحديد لحركة فتح في مخيم تلّ الزعتر، وكان هذا الحادث المأساوي جللاً بالنّسبة له ولجميع أفراد أسرته وعائلته الممتدة. ولم يغيّر عبد الجواد صالح من نهجه وعطائه الوطني في هذه المرحلة، حين وجد نفسه مضطراً للوقوف في «خندق المُعارضة من داخل المؤسسة». حيث ناضل في موقعه من هذا الخندق لدفع منظمة التحرير الفلسطينية للاهتمام بشكل أكبر بالضفة والقطاع. وكذلك مكافحة مظاهر الفساد والبيروقراطية فيها وتعزيز النهج المؤسّساتي.

ورغم تحجيم دوره في هذه المرحلة بشكل ملحوظ، مقارنة بدوره في الضفة الغربية قبل إبعاده، أسهم في مبادرة شخصية ببناء ملاجئ وتحصينات في مخيمات لبنان؛ لحماية سكانها من وحشية الغارات الإسرائيلية، وهي المهمة التي أنجزها بنجاح باهر، وساهمت في تقليل كبير لعدد الضحايا في صفوف اللاجئين بسبب هذه الغارات أو خلال الحرب الأهلية اللبنانية (تل الزعتر مثالاً). كما كان أكثر شخص ساهم في دفع قيادة المنظّمة لدعم الشخصيات الوطنية الفلسطينية لخوض معركة الانتخابات البلدية في الضفة الغربية عام 1976، وهو عكس موقف الرفض الحادّ الذي أخذته نفس القيادة تجاه الانتخابات البلدية في الضفة الغربية عام 1972.

وقد أدّت انتخابات عام 1976، على عكس ما كانت تسعى إليه إسرائيل من إجرائها، إلى ظهور قيادة وطنية منتخبة في الداخل، من نوع جديد في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، تحظى بشرعية فلسطينية وعربية ودولية وحتى إسرائيلية، رغم التفافها حول منظمة التحرير الفلسطينية. كما وقف وحيداً تقريباً حين جاهر في اجتماع

ضمّ قيادات فلسطينية بسوء تعامل أجهزة الثورة البيروقراطية مع لاجئي مخيم تل الزعتر بعد تهجيرهم الوحشي من قبل القوّات الانعزالية اللبنانية في آب/أغسطس 1976، وهو موقف أدّى إلى تهديده بلا مواربة وبفجاجة بالقتل. وفي نفس الوقت فقد اتّخذ بشجاعة وضدّ التيار موقفاً أخلاقياً مُعارِضاً لإسكان اللاجئين الفلسطينيين الذين هجّرتهم القوّات الانعزالية خلال الحرب الأهلية، وخصوصاً سكّان مخيم تلّ الزعتر، في مناطق مسيحية جلا عنها سكّانها خلال الحرب الأهلية مثل بلدة الدامور.

وبعد خروجه من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في ربيع عام 1981، بعد دورة المجلس الوطني الخامسة عشرة في دمشق، توجّه إلى عمّان لينهمك دون تلكؤ في نشاط وطني من نوع جديد، حيث أسّس مركز أبحاث في عمّان (مركز القدس للدراسات الإنمائية)، والذي أصدر من خلاله مجموعة من الدراسات الحيوية عن فلسطين، وسبل مواجهة الاحتلال والاستيطان الإسرائيلي. كما أصبح جزءاً من المشهد السياسي والثقافي الفلسطيني الذي شكّلته مجموعة من خيرة الشخصيات الفلسطينية المناضلة في عمّان.

أمضى عبد الجواد من عمره عشرين عاماً في المنفى ثمّ عاد إلى البيرة، مع أول دفعة من المبعدين العائدين إلى الوطن في 30 نيسان/أبريل 1993، ليبدأ فصلاً جديداً من مشواره السياسي، حيث بدأ التواصل مع شخصيات وفعاليات في الضفة الغربية لتشكيل لجان وطنية لمقاومة الاستيطان، ثمّ قرّر خوض الانتخابات التشريعية الأولى للسلطة الفلسطينية عام 1996، رغم تحفظه على اتفاقيّة أوسلو، وفاز بنسبة أصوات قياسية ليس ضمن دائرة رام الله فحسب، بل وعلى صعيد الضفة الغربية بأسرها، ليصبح نائباً في الدورة التشريعية الأولى. وبعد ذلك قرّر «خوض المغامرة» حين وافق على تولي حقيبة وزارية في الحكومة الفلسطينية الأولى واختار بنفسه حقيبة الزراعة لمّا تعنيه له الأرض من قيمة وطنية. وكان منطلقه من ذلك عمليّاً وبسيطاً: «أنا وشعبي على سفينة تواجه الإعصار، ومهما كانت تحفظاتي على الربّان، فإنني لا أستطيع أن أقف أمام هذا الخطر الداهم مكتوف الأيدي دون حراك».

ومن جديد، خاض بوصفه عضواً في المجلس التشريعي ووزيراً للزراعة مواجهة ضدّ الفساد والبيروقراطية من جهة، والاستيطان الإسرائيلي من جهة أخرى، وأخذ رغم

هذين المنصبين مواقف اتّسمت بالمعارضة «من الداخل» قبل أن يُستبعَد بعد سنتين، في تغيير وزاري أجراه الراحل ياسر عرفات عام 1998، من وزير زراعة إلى وزير بلا حقيبة وزارية، رغم الفعالية التي شهد له بها القاصي والداني في وزارة الزراعة، ليستقيل فوراً من الحكومة مُعترضاً على هذا الإقصاء.

صعّد عبد الجواد صالح من معارضته للطريقة التي أديرت بها شؤون السلطة الوطنية بعد سنوات من توقيع اتفاقية أوسلو، فكان أحد الموقعين على بيان العشرين الشهير عام 1999. كما رفض قرار التمديد للمجلس التشريعي عام 1999، معيباً على الأغلبية الساحقة من زملائه في المجلس موافقتهم عليه، معتبراً أنّ في هذا القرار «تكريساً لاستمرار هيمنة الاحتلال». وفي مرحلة لاحقة بعد رحيل القائد ياسر عرفات، توجّه إلى محكمة العدل العليا عام 2012، لتقديم طعن ضدّ استهانة القيادة الفلسطينية بالقواعد الدستورية الواردة في القانون الأساسيّ الفلسطيني، والتي ساهم في صياغتها عندما كان نائباً في المجلس التشريعي. وقد أدّت مجمل مواقفه المعارضة هذه إلى دفعه ثمناً كبيراً سنأتي على ذكره في متن الكتاب.

إضافة لما سبق، يمكن القول إنّ عبد الجواد صالح سجّل مواقف شجاعة في لقائه بحاكمين عربيين، هما العاهل الأردني الملك حسين، والرئيس السوري حافظ الأسد. حيث صارح الملك حسين ضمن لقاء تمّ في القصر الملكي بعمّان في منتصف كانون الأوّل/ديسمبر 1973 برأيه الناقد لما جرى في أحداث أيلول الأسود عام 1970، وهو رأي تقبله العاهل الأردني برحابة صدر. كما طالب حافظ الأسد في لقاء تمّ في دمشق أواخر عام 1975 مع رئيس وأعضاء اللجنة التنفيذية، أمام دهشة الحاضرين ودهشة الرئيس الأسد، بإطلاق سراح المعتقلين الفلسطينيين في سوريا.

وعن تجربته مع ياسر عرفات بالذات، الذي عايشه عن قرب خلال فترتين: الأولى ومدتها سبع سنوات (1974 – 1981) بوصفه عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وفي المرة الثانية ومدتها سنتان، عندما أصبح «وزيراً» للزراعة (1996 - 1998)، يعطي عبد الجواد صالح عرضاً لتجربة أقل ما توصف به أنّها مريرة ومتوترة، حيث ظلّ عبد الجواد معارضاً نهج القيادة، مُنطلقاً من ضرورة تعزيز نهج مؤسساتيّ بديل. واستمر يحاول بكل جهده محاربة الفساد، وتغليب الكفاءة والموضوعية والانتماء على الولاء، ونبذ الأبعاد السلبية للفصائلية،

والكفاح ضدّ تحويل المؤسسات إلى مؤسسات زبائنية تقوم على ظاهرة «الاستزلام» المريضة.

كيف تمّ إنتاج هذه السيرة؟

بالنّسبة لوالدي نفسه، وبالنّسبة لي شخصياً، كانت فكرة كتابة سيرة ذاتية تخصّ مشواره الوطني الطويل ماثلة على الدوام منذ عشرين عاماً على الأقل، كونه كان فخوراً جدّاً بما قام به خلال حياته. ولهذه الغاية دوَّن هو في فترات متفرقة منذ نهاية التسعينيات، وإن كان بشكل غير منهجي، مجموعة من ذكرياته التي تناثرت موزّعة ما بين ورق وحاسوب. أمّا أنا من جانبي، فقد عايشت تجربته عن قرب، ناهيك عن أنني طالما جالسته لأسأله حول بعض القضايا والأحداث التي عايشها، والتي لم تكن صورتها مكتملة عندي، وكان يسعد بهذه الجلسات ويجود عليّ بالكثير ممّا عنده.

لكنّ تجربته في وزارة الزراعة الغنية والمريرة في آن استأثرت بالذات باهتمامه، ولهذا الغرض أنجز في عام 2004 (على الأغلب)، وبعد جهد جهيد، استغرق عدة سنوات، نتجت عنه مخطوطة نهائية لكتاب يزيد عن ثلاثمائة صفحة، وثّق فيه تجربته في عمله وزيراً للزراعة بين عاميّ 1996 و1998، لكنّ المخطوطة النهائية للكتاب التي كانت قيد الطباعة في مطبعة في مدينة جنين، لم يُقيَّض لها أن ترى النور. إذ تمّ تسريب نسخة من هذه المخطوطة (على الأغلب من أحد العاملين في المطبعة) ما أدى إلى إثارة اعتراضات غاضبة وحادّة من شخصيات لم يعجبها ما جاء عنها في المخطوطة، ما أجهض للأسف نشرها. وكانت وجهة نظري (وبقية أفراد الأسرة) أنّه يمكن تعمية هذه الأسماء ونشر الكتاب دون التطرّق لها صراحةً، لكنّ الوالد أصرّ على أن يُنشر الكتاب كما هو، وإلّا فلا. وهذا يحيلنا من جديد لطباعه الشخصية، وللعلاقة الضرورية بين إنتاج السير الذاتية عربياً والمناخ الديمقراطي السياسي والمجتمعي.

مرّت السنوات وتجاوز والدي سنّ التسعين دون إنتاج سيرة ذاتية تخصّه. وظلّ الأمر على حاله حتّى جاءني كريم قرط، وهو أحد طلابي الأعزّاء، ويعمل، حينها، باحثاً في مؤسسة يبوس للاستشارات والدراسات الإستراتيجية في رام الله، ليخبرني أنّ القائمين على «مركز رؤية للتنمية السياسية» في إسطنبول، الذي يديره الدكتور

أحمد عطاونة ، تواصلوا معه للتعاون بنيّة إنجاز مذكّرات عبد الجواد صالح ونشرها. وطلب منّي الاتصال بالوالد لترتيب عملية إجراء المقابلات. رحّب الوالد بالفكرة وتحمّس لها، فأبلغت كريم بالموافقة، لكنّي طلبتُ منه أن تكون المقابلات مصوّرة بتقنية عالية، لتكون ملائمة في حال قرّرت جهة ما إنتاج فلم وثائقي يسرد قصّة عبد الجواد صالح.

في السادس من تشرين الثاني/نوفمبر 2022، سجّل كريم أولى المقابلات واستمر التسجيل لمدّة شهور وكنت أحضر بعض هذه المقابلات، وأقاطع الوالد وأصحّح له بعض المعلومات، حين تختلط بعض الأمور أحياناً عليه. بعد الانتهاء من إجراء المقابلات، تمّ الاتفاق بالشراكة مع «مركز رؤية» على أن يبدأ كريم بتحرير نصوص المقابلات بعد تفريغها لإعداد فصول السيرة، مع الاستعانة ببعض الكتابات القديمة التي كان والدي دوّنها ورقيّاً أو رقمياً بما في ذلك ما نشره عبر حسابه «الفيسبوك»، وتقرّر أن يقتصر دوري على الإشراف العام على التحرير وعلى المخطوطة وتقديم بعض المشورة عند الحاجة.

بعد إنهائه مرحلة تسجيل المقابلات وتفريغها، بدأ كريم مرحلة التحرير وهي المرحلة الثانية من العمل، وراح يكتب الجزء الأول والخاص بفترة الطفولة (بالأصل من 15 صفحة)، وبذل في ذلك جهوداً مشكورة ومقدّرة، ولكن رغم تفانيه ظهرت في النص ثغرات وفجوات كبيرة بسبب طبيعة المادّة الخام القاصرة المأخوذة من هذه المقابلات، رغم أنّ مرحلة الطفولة هي الأعز على والدي، وأكثرها انطباعاً في ذاكرته. لم يكن ذلك مفاجأة فالوقائع سُجلت بعد مرور عقود طويلة على الأحداث، في وقت لم تكن ذاكرة عبد الجواد صالح تسعفه بكل التفاصيل.

ولحلّ هذا الإشكال وغيره طُلِب منّي الانتقال من دور الإشراف العام إلى دور المحرّر، خصوصاً وأنّي عايشت بنفسي وعن قرب فصولاً عديدة من مسيرة الوالد، ولديّ ذاكرة فولاذية يحسدني البعض عليها، فضلاً عن إحاطتي بالسياق التاريخي والسياسي لهذا المسيرة، كوني عايشتها أولاً، وكوني باحثاً ومؤرّخاً متخصّصاً في موضوع الذاكرة التاريخيّة. ناهيك بخبرتي في تحرير السير الذاتية، فقد سبق لي إنجاز كتابيّ سيرة خلال عملي رئيساً لمركز أبحاث جامعة بيرزيت (مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني)، نُشرا عاميّ 1994 و1995 ضمن سلسلة كان يصدرها

المركز بعنوان «صفحات من الذاكرة الفلسطينية». تضمّن الكتاب الأول تذكّرات طلعت حرب، بينما تضّمن الثاني تذكّرات حاتم كمال.[5]

وإذ شرعت بالعمل على تذكّرات والدي، واجهتني عدّة تحديات أهمّها ملء الفجوات والثغرات، ومعالجة الخلل الناجم عن شهادة الراوي، التي صيغت أحياناً بأثر رجعي، وإحاطة التفاصيل الشخصية بالسياق التاريخي والسياسي المرافق لها. أما التحدّي الآخر فقد تمثل في تحويل المحكي بلغة ذاتية إلى مكتوب بلغة اجتماعية وسياسية مفهومة للجمهور. فالفكرة ليست أن يعود الباحث أو السياسي أو الأديب وحتى القارئ العادي لهذا الكتاب ليقرأ عن سيرة شخصٍ لعب دوراً مهماً في الحركة الوطنية الفلسطينية في فترة زمنية عصيبة، وإنما مِن أجل أن يقرأ أيضاً في نفس الوقت التاريخ السياسي والاجتماعي لهذه الفترة. وأزعم أنني حققت المطلوب في هذا المسعى الصعب. فقد شمل الكتاب ثلاثة أبعاد: فهو يروي سيرة عبد الجواد صالح بكل جوانبها الشخصية والنضالية، ويساهم في الوقت نفسه في إثراء التأريخ السياسي والاجتماعي للضفة الغربية (خاصة البيرة ورام الله)، ويشكل في الآن ذاته مرجعاً لخطّ الزمن الفلسطيني الممتد من عام 1948 وحتى يومنا هذا.

خلال عملية البحث والتحرير، اضطررت مرغماً، كي لا تتكرّر تجربة مخطوطة كتاب عبد الجواد صالح عن وزارة الزراعة، لممارسة نوع من الرقابة الذاتية، فحذفت بعض المعلومات التي قد تخلق حساسية سياسية أو شخصية، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بمكانة وسمعة شخص أو عائلة ما. وهذا ليس فقط لأنّ مكانة حرية التعبير في مجتمعنا تظل، محدودة ومقيدة بكثير من المحرمات السياسية والاجتماعية. بل لأنّ الحالة الفلسطينية، هي أيضاً حالة فريدة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار الكثير من القيود المرتبطة بالظروف والأوضاع السياسية، التي تكبّل حرية التعبير، لا فلسطينياً فحسب وإنما عربياً أيضاً (واللبيب من الإشارة يفهم). ومع ذلك فقد حافظ هذا العمل، على ما أرجو، على هذه التجربة دون المس بجوهر كتلتها الأكبر.

5 طلعت حرب (1929 – 2009) مناضل شيوعي من رام الله، وتعطي سيرته صورةً عن الحياة الاجتماعية في مدينة رام الله، ودوره في الحزب الشيوعي خلال العهد الأردني؛ أما حاتم كمال (1920 – 2003) فهو موظف كبير في مجال الزراعة خلال العهد الأردني وتحت الاحتلال الإسرائيلي، وتعطي سيرته صورةً على الحياة الاجتماعية لمدينة نابلس وعن قطاع الزراعة في الضفة الغربية في العهد الأردني وعهد الاحتلال. وعليَّ هنا التوضيح أنني لم أكن رغم إنجازي للكتابين الشخص الذي حدد اختيار هاتين الشخصيتين.

خلال عملية الحصول على بعض المعلومات والتحقق من بعضها الآخر، خارج نطاق المعلومات التي نستقيها من الوالد واجهتنا عدة مشاكل:

الأولى، مشكلة الأرشيفات المتاحة، فعلى سبيل المثال لا يوجد في كل الضفة الغربية (دون القدس) أرشيف خاص يضم الصحف الفلسطينية التي صدرت في الضفة الغربية خلال العهد الأردني بما في ذلك مكتبة جامعة بيرزيت.[6]

المشكلة الثانية، تتمثل في غياب الدقّة، والمبالغة التي تُميّز العديد من المصادر الثانوية المكتوبة التي تُعنى بالتواريخ المحلية. فمعظم كتّابها، المشكورة جهودهم وعطاؤهم على أي حال، هم بالعادة هواة بلا خبرة أو دراية بقواعد الكتابة التاريخية، ولذلك فإنهم أوغلوا في المبالغة التي أخلّت بالحقيقة، ونادراً ما أخضعوا معلوماتهم ومصادرهم للفحص والتدقيق.[7] فبعض المعلومات الخاطئة شائعة ومتكرّرة لأنّ كاتباً ما «رمى» معلومة ما في مكان ما فدخلت «السيستم» وراحت الكتابات تتناقلها وتقتبسها لتصبح مع التكرار حقيقة راسخة. وهناك مشكلة عمومية المعلومات المقدّمة، ووجود ثقوب سوداء تخصّ كثيراً من الأحداث. وهذا ما جعلنا نضطر إلى إخضاع بعض المعلومات لعملية تحقيق تاريخي.

اتّبعنا في هذه السيرة العرف القاضيَ بتدوين الماضي الأبعد ثم السير منه قُدماً نحو الماضي الأقرب، مع تعمّد الانتقال الزمني بين الماضي والحاضر أحياناً لما يربطهما من تواصل لأجل استجلاء الموضوع وفهمه. ومن نافلة القول إنّ دراسة الماضي، ضمن هذه السيرة وغيرها، يحدث لفهم الحاضر ومراكمة وعي جماعي للزمن الفلسطيني. وبهذا المعنى، فإنّ الهدف الأسمى لهذه السيرة هو ما يقوله شفيق الحوت في سيرته الغنية (بين الوطن والمنفى): «نقل التجربة من جيل إلى جيل، أملاً في عدم تكرار أخطاء الماضي، وكي لا يعيد التاريخ مآسيه».

وأقلّ ما يقال هنا إنك تحمد لعبد الجواد صالح تسجيله للتجربة بجرأة وصراحة، ولعلّ ذلك يدفع أشخاصاً آخرين خاضوا تجارب مختلفة في منظمة التحرير

6 تم تذليل الأمر جزئياً فقط، من خلال أرشيف الصحف العربية الموجود والموثق رقمياً في أرشيف «المكتبة الوطنية الإسرائيلية».

7 على سبيل المثال في حالة رام الله والبيرة: كتابا يوسف جرجس قدورة، تاريخ مدينة رام الله، نيويورك، مطبعة الهدى، 1954.؛ محمد حماد، مدينة البيرة مصيف الأردن الجميل، البيرة، مطبعة الشرق لصاحبها حجازي رشيد، 1966. حيث نجد مبالغة وتعظيم لدور القرية أو البلدة (رام الله والبيرة مثالاً)، خلال النكبة الفلسطينية، حيث يتم الحديث عن ذلك بفخر شديد رغم أنّ الحقيقة والواقع أقل من ذلك بكثير.

الفلسطينية والثورة لكتابتها، سواء كانوا معجبين أم ناقدين، لأن ذلك أصبح من تاريخ الفلسطينيين الذي يستحق الدراسة والتسجيل والتقييم؛ لاستخلاص العبر وتجاوز الأخطاء والمثالب. لكن عليّ هنا أن أعترف مرة أخرى بأنّي اضطررتُ لأغراض نشر سيرته، أن أخفّفَ من صراحته وجرأته التي سبق وأشرنا إليها.

نظراً لأن هذا الكتاب يُعدّ، إلى جانب كونه سيرة ذاتية، مادّة توثيقيّة تناولت محطّات من التاريخ السياسي الفلسطيني، وكذلك محطات من التاريخ الاجتماعي لمنطقة البيرة ورام الله، فقد استدعى ذلك جهداً كبيراً أثناء تحريره. بما في ذلك وقتٌ مُطوَّل للاطلاع والبحث والتنقيب في العديد من المصادر المكتوبة والمرئية. وفي بعض الأحيان، كان من الضروري تكريس وقت وجهد كبيرين للتحقق من مجرد معلومة صغيرة أو ثانوية. وعلى سبيل المثال، لتحديد السنة التي عاد بها عبد الجواد صالح إلى البيرة بعد سنوات من العمل في ليبيا مدرّساً في دار المعلمين الحكومية بطرابلس الغرب، اقتضى الأمر الذهاب إلى مدرسة البيرة الجديدة والنبش في أرشيفها غير المفتوح للباحثين، لمدّة يومين، من أجل معرفة التاريخ الدقيق المطلوب والذي كان صيف 1961[8] في حين تعمد بعض كتب السيرة إلى الاكتفاء في هذه الحالة، وعلى أحسن الأحوال، بعبارة «في مطلع الستينيات». وهذا يقودنا إلى نقد كثير من السير السياسية، التي تُغفل أهمية الزمان وتحديده في فهم المواضيع وترابطها.

كما اعتمدت هذه السيرة نهجاً قد يكون غير مألوفٍ، ولربما حتى مستهجناً، من خلال الإصرار على رفد بعض المعلومات الواردة في السيرة بإشارات مرجعية تحيل إلى عدد من المصادر التي تؤكّد هذه المعلومات، وكذلك بهوامش تقدّم تفسيرات وتعليقات تثري السرد وتوضّحه. والدافع من وراء هذا كلّه انزعاجٌ شخصيٌّ قديم ممّا تقدّمه غالبية كتب السيرة الذاتية من معلومات[9] دون سند أو توثيق، يتضح، بعد البحث والتدقيق أن بعضها جانبه الصواب. وكلّي أمل أن يحذو آخرون حذو هذا النهج على طريق تعزيزه.

هذا الكتاب الذي أضعه بين يديّ القرّاء، لم يجارِ النهج الشائع الملتزم بالرواية الوطنية التوافقية التي تطمس التوترات الداخلية للمجتمع الفلسطيني، فالمجتمع

8 من خلال أرشيف المدرسة ظهرت السنة (1961) التي التحق فيها نجلا عبد الجواد صالح بالمدرسة مباشرة بعد العودة من ليبيا.

9 بالطبع هذا لا يشمل الأعمال التوثيقية التي تأخذ طابع السير الذاتية.

الفلسطيني شأنه شأن باقي المجتمعات حول العالم، يخضع بالضرورة لشروط الاجتماع البشري. ولذلك لم نضف رومانسية على العلاقة بين رام الله والبيرة، وهي العلاقة التي اتّسمت تاريخياً بالود والوئام غالباً، لكنّها تراجعت أحياناً على خلفية التنافس بينهما. وفي نفس الاتجاه، فرغم أنّ العلاقة بين أهالي البيرة ورام الله واللاجئين، الذين نزحوا للمدينتين في أعقاب نكبة عام 1948 واستقروا فيهما، سادها عموماً الدعم والتكافل والتعاضد بين أبناء الشعب الواحد، إلا أنّنا لم نتوانَ عن الإشارة لبعض التوتر الذي شاب العلاقة بين الطرفين أحياناً.

وعلى العكس من كتب السيرة الأخرى التقليدية، التي تُقسم في العادة لنوعين: السيرة الذاتية التي يخطّها صاحبها بنفسه، وبين السيرة الغيرية التي يرويها شخص آخر عن صاحب السيرة، هذا الكتاب هجين يمزج بين النوعين، فمن جهة ينطق الكتاب بلسان عبد الجواد صالح نفسه، ومن جهة أخرى يُثري المحرّر النص من خلال الإضافة والتحقيق والمشاركة في السرد، دون أن تمسّ مساهمته بجوهر وروح تذكّرات صاحب السيرة أبداً. وهذا السرد المزدوج والمتجانس يقدّم قالباً جديداً يتجاوز حدود السيرتين الذاتية والغيرية، بهدف واحد وحيد، إعطاء صورة أكثر ثراءً ودقّة وأمانةً عن حياة عبد الجواد صالح وإرثه.

ختاماً، إنّ الحكم على هذه السيرة مرتبط بدقّة ما قدّمته من معلومات عن صاحبها، في سياق تاريخي محدّد، وكذلك بنجاحها في رفد القارئ بالمعرفة، بل والارتقاء به إلى التحليل العميق، واستخلاص الدروس والعبر.

فنّ السيرة عربيّاً وعالميّاً

منذ نهاية القرن الثامن عشر، برز الاهتمام عالميّاً بالمذكرات والسير الذاتية واليوميات باعتبارها مصدراً تاريخيّاً مهمّاً. ومع مرور السنين تعاظم الاهتمام بها، بحيث أصبحت في المئة عام الأخيرة على الأقل جنساً أدبيّاً سائداً. ولعلّ المنظور الذي يهتم بحياة البشر أكثر من الاهتمام بالأحداث السياسية الكبرى، حيث تتم دراسة موضوع جزئي أو محلي أو تجربة فرد ما، بعمق عامودي لا توفره الدراسات الشاملة العامة الأفقية، وغوص السيرة «في تفصيلات ذات نكهة خاصة، تحوي الجانب الإنساني وتعطي التاريخ لوناً من الألفة والمباشرية، لا يتوفر في كتب التاريخ العادية وفي الوثائق والتقارير الرسمية، ولا يمكن تجسيده إلاّ من خلال المعايشة

الحية والمعاناة الشخصية»[10]، هو ما عزز من اعتبار المذكرات على صعيد عالمي مصدراً مهماً من مصادر التاريخ السياسي والاجتماعي.. إلخ. ولا شكّ أنّ أفضل المذكرات السياسية هي تلك التي تترك لدى القارئ شعوراً بالحميمية الحقيقية، وإحساساً بأنها تستطيع رسم معالم عقل الكاتب.

تاريخياً، شهدت الحضارة العربية الإسلامية كتابات للسير، والسير الذاتية منذ البداية مثل أعمال التراجم، ناهيك بكتابات السيرة النبوية، ولكنّ هذه الكتابات على أهميتها وكثرتها ورغم أنها أصبحت أدباً مستقراً ومعروفاً منذ أواخر القرن الحادي عشر ميلادي، يشكّل كما يقول المؤرخ الفلسطيني طريف الخالدي «مفخرة من مفاخر الثقافة العربية الإسلامية»،[11] إلا أنّها لا تتطابق مع الشكل الحديث لفنّ السيرة الذاتية كما نعرفه اليوم، وهو الشكل الذي نشأ بالأساس ضمن السياق الغربي. وفيما يخصّ السير الذاتية السياسية، فرغم كثرة ما يُنشر منها في العالم العربي مؤخراً، إلا أنّها أقل رواجاً وغزارة في العالم العربي مقارنة بمناطق عدّة حول العالم، حيث إن الاهتمام عالٍ بهذا الفنّ، فضلاً عمّا تتّسم به السير الذاتية في الغرب من جوانب نقدية وصريحة. ويعود ذلك إلى أسباب عدّة منها افتقاد السياسيين العرب لعادة تسجيل اليوميات التي لم تتأصّل في تقاليدهم إلا قليلاً.[12]

والسيرة الذاتية لا تخصّ صاحبها وحده، إنّما هي مدخل للحياة العامة والظروف السياسية والاجتماعية، وهي بهذا تمثّل مصدراً تاريخياً قد يتساوى في أهميته مع المصادر التاريخية الرئيسة. ومع ذلك، ينبغي رفض التعامل الساذج معها باعتبارها وثيقة أكيدة، فهي إلى جانب كونها تأريخاً وتوثيقاً تعتبر أيضاً فنّاً سردياً يعمد في كثير من الأحيان إلى اختراع صورة جديدة للذات، أي أنّها محاولة لإعادة بناء الهوية الثقافية والشخصية لصاحب السيرة من خلال اللغة وعبر الخيال. فمن نافلة القول إنّ الإنسان عندما يتحدث عن نفسه، يمارس أصنافاً من الانتقائية فيُقصي أموراً ويُظهِر غيرها، ناهيك بإمكان التزييف والتحريف، ومشكلات الذاكرة. وضمن

---

10 خيرية قاسمية، « المذكرات والسير الذاتية كمصدر لتاريخ فلسطين في القرن العشرين»، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد 64، خريف 2005، ص. 64

11 طريف الخالدي، «ملاحظات تمهيدية» (في) كتاب عصام نصّار وسليم تماري (مُحرِّرَيْن)، دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام: قراءات في السير والسير الذاتية. بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2007. ص. 12؛ انظر كذلك وبنفس الرأي: دوايت رينولدز «من ترجمة النفس إلى السيرة الذاتية: الأبعاد التاريخية والأدبية». في نفس الكتاب ص. 18–27.

12 قاسمية، « المذكرات والسير الذاتية»، ص. 64.

هذا السياق أوافق الكاتب والناقد الفلسطيني فيصل دراج في تعريفه للسيرة: «تقوم السيرة الذاتية، نظرياً، على كشف ذاتي، تختلف مقاديره بين وعي مقيّد، يخلط بين البوح والفضيحة، ووعي حرّرته تربية طليقة يترك أسراره نسبياً عارية (..) والسيرة استحضار لزمن ذهب ومساءلة خبرة منقضية، اعتقد صاحبها أنها جديرة بالكتابة والذيوع. إنها حوار معلن مع الذات، توحد الكتابة أزمنته المتناثرة، وتمدّه بالثبات».[13]

ولهذا يحاول النقديون من المؤرّخين وعلماء الاجتماع تفكيك المحتوى الواقعي للسيرة الذاتية وعزله عن المصفوفة السردية المتخيلة: تمييز ما يُمكن تصديقه وقبوله عمّا يمكن دحضه ورفضه. في حين سعى النقاد الأدبيون إلى اعتبار السيرة الذاتية فناً خياليّاً، وتعاملوا معها كما لو أنّها نصوص روائية. ويتفق الكثير من الباحثين والنقاد على صلة القرابة الكبيرة والوثيقة رغم الاختلاف والافتراق بين الرواية والسيرة الذاتية، بل أنّ بعض الروايات اعتُبرت بمنزلة سير ذاتية تتخفّى وراء الخيال الأدبي. وبطبيعة الحال فإنّ كُتّاب السيرة الذاتية أنفسهم مسؤولون عن الطريقة التي يتلقّى بها القرّاء والنقاد كتاباتهم.

وعليه، يتوجّب إخضاع نصّ السيرة الذاتية، كأي نصوص ومصادر تاريخية مكتوبة كانت أم شفوية لامتحان المصداقية، ولا شكّ في أن تحقيق الصدقية والتوصل إلى نتائج مرضية منوطان بإخضاع شهادة كاتب السيرة، كما يفترض بالطبع في أي عمل تاريخي رصين، لقواعد ومعايير معينة وواضحة من التحقيق والتدقيق والفحص والمقارنة والنقد، وهو ما فعلتُه بجّد وثبات مع الشهادات التي قدّمها صاحب هذه السيرة. ولم يؤثّر كونه والدي على هذا النهج الذي اخترته منذ البداية، فحرصت دائماً على الدقة في القول والعمل، ولم أقبل بإدراج أي معلومة ليس لها سند موثق، مكتوباً كان أم شفوياً. ولم تكن هذه بالمهمّة السهلة على الإطلاق.

***

مثل أيّ عمل تاريخي آخر، تتأثر كتب السيرة بعدة عوامل، بعضها موضوعي أي خارج نطاق تحكّم المؤرخ، ومنها ما هو ذاتي أي مرتبط بطبيعة شخصية وقيم وأخلاق صاحب السيرة، أو شخصية من يؤرّخ له. بالنسبة لي فإن أهم عامل موضوعي في كتابة التاريخ، يتمثل في وجود مناخ ديمقراطي أساسه حرية التعبير

13 فيصل دراج. «حسين البرغوثي: الإبداع في السيرة الطليقة»، دورية الكرمل، العدد 82، شتاء 2005. ص136–155.

بلا حدود أو قيود. هذه أهمّ قاعدة: فلا كتابة تاريخية بدون ديمقراطية، ولا تعنينا هنا طقوس الديمقراطية التي تركز عليها الدوائر والمرجعيات الغربية وعلى رأسها عملية الانتخابات، إنّما ما تتضمنّه الديمقراطية من حرّيات الرأي والتعبير والنشر والوصول للمعلومات (الأرشيفات والمُعطيات الرسمية بشكل خاص).

وبمقدار ما يهمّنا غياب الحرّيات في عالم عربيّ تتسيّده أنظمة حكم ترفض كلّ رأي أو معرفة تهدّد شرعيتها السياسية، فمن الإنصاف ألّا نلقي باللوم فقط على الأنظمة السياسية والحكومات في هذا السياق. إذ يعنينا أيضاً غياب ثقافة ديمقراطية داخل المجتمعات نفسها (العائلات والعشائر ومكونات المجتمع المحلي الأخرى). فأنت تستطيع أحياناً انتقاد زعيم سياسيّ ولكنّك في الغالب لا تستطيع انتقاد عائلة أو جماعة متنفّذة أو فكرة مجتمعية سائدة، أو حتّى مثقف معروف. وهذا يعني غياب الثقافة السياسية والجاهزية المجتمعيّة لتقبّل الكتابة النقدية. ومثلما أنّه لا تاريخ سياسي بدون أنظمة سياسية تسمح بحرّية الرأي، فإنّه لا تاريخ اجتماعي أيضاً بدون نظرة أو رؤية نقدية لا تعترضها حواجز المجتمع.

يؤدّي غياب الديمقراطية في العالم العربي، على صعيد الدولة والمجتمع، إلى نشر سير ذاتية «مُهذّبة» تكتم الأسرار وتحيد عن الخوض في مساحات شائكة وذات حساسية.[14] أو تؤدّي أصلاً إلى عزوف صانعي الأحداث أو معاصريها عن الإدلاء بشهاداتهم ونشر ما عايشوه من وقائع وأسرار، حيث يترتب على تقديم بعض الشهادات في ظلّ انعدام الحريات دفع أثمان منها ما هو بالفعل باهظ وثقيل.

هذا العزوف عن مشاركة التجارب العامّة للأفراد خوفاً من دفع الأثمان، يتناقض مع حق أيّ شعب على الذين تولوا مسؤولياته السياسية، وانخرطوا في شؤونه المجتمعية في حقبة محدّدة، أن يقدّموا له خلاصة تجاربهم، وأن يكشفوا خبايا يمكن مراكمتها في الوعي الجمعي للاستفادة منها في الحاضر والمستقبل، ومن ذلك أسرار قد تموت وتندثر مع صاحب السيرة إذا عزف عن مشاركتها، وأضاع فرصة إبقائها حيّة في النفوس. فما يملكه صاحب السيرة، في هذه الحالة، من تجارب عامّة ليس ملكاً

14 على سبيل المثال، نلاحظ في سيرة أحمد اليماني (أبو ماهر)، وهو أحد قادة حركة القوميين العرب ومن ثمّ الجبهة الشعبية لتحرير لفلسطين، تعمّده الابتعاد عمّا هو إشكالي وتجنّبه الإشارة إلى كل ما قد يثير الخلاف في الرأي، علماً بأنّ أهمية المذكرات تُقاس بقدر ما تثيره من نقاش وسجال حول القضايا الخلافية والشائكة. أحمد اليماني: مذكرات أبو ماهر اليماني: تجربتي مع الأيام. ط1 (الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،2021)، ضمن سلسلة «ذاكرة فلسطين».

شخصيّاً لـه، إنّمـا هـو جـزء مـن ذاكـرة الأمّـة والوطـن، وهـي ملكيـة اجتماعيـة وتراثيـة عامّـة لا يجـوز التفريـط بهـا خوفـاً مـن سـطوة السـلطة أو المجتمـع أو رأسـمالية السـوق، بيـد أنّ هـذا الـكلام يظـل نظريّـاً، ويظـلّ في البـال حـقّ الأفـراد في حمايـة أنفسـهم في بيئـات القهـر والاسـتبداد، وهـذه معضلـة أخلاقيـة أتـرك للقـارئ التفكيـر بهـا.

أمّا بالنسبة للعوامل الذاتية في كتابة السيرة فهي تعتمد على عدّة أركان، أهمّها ثلاثة:

أولهـا، مـدى قـوة ذاكـرة صاحـب السـيرة، خصوصـاً عندمـا تُسـجَّل وتُـدوّن السـيرة بعـد عقـود طويلـة مـن مـرور الأحـداث التـي يتطـرق إليهـا صاحـب السـيرة، (وطويلـة جداً كمـا في حالتنـا). خصوصـاً أولئـك الذيـن لـم يتعـودوا علـى تدويـن وتوثيـق يوميـات تعينهـم لاحقـاً علـى تذكـر مـا غيبتـه ذاكـرة خؤونـة. ناهيـك عـن الشـكوك الشـرعية بقـدرة الذاكـرة علـى توفيـر وصـول موثـوق إلـى محتويـات الماضـي. ونلاحـظ في هـذا السـياق، انّ السياسـيين في الغـرب غالبـاً مـا ينشـرون مذكّراتهـم فـور تقاعدهـم، وأحيانـاً حتـى في ذروة حياتهـم السياسـية، وليـس كمـا يحـدث في العالـم العربـي إذ تنشـر المذكـرات غالبـاً بعـد فتـرة طويلـة مـن انقضـاء أحداثهـا، وبعـد أن تباعـد السـنين بـين دور أصحـاب السـير وبـين تلـك الأحـداث التـي عاصروهـا.

أمـا ثانيهـا، وهـو أخلاقـي، فيتمثـل في ميـل صاحـب السـيرة للنزاهـة والموضوعيـة وقـول الصـدق وإعطـاء كل ذي حـق حقـه، فـلا ينسـب كل الفضـل أو الفعـل لنفسـه، وبالمقابـل يتجاهـل أو يغفـل دور الآخريـن. وعليـه ألا يكـون فاجـراً في خصـام، فيميـل للنيـل مـن خصومـه أو أعدائـه، فيتلمّـس العثـرات ويختلـق الأكاذيـب كيـداً لمعارضيـه. فالسـيرة الذاتيـة يمكـن بطبعهـا أن تكـون تعسـفيّة، إذ إنّ كاتـب السـيرة لا يخضـع لأيّ رقابـة أو تحقيـق: هـو ملـك النـص وهـو الشـاهد والخصـم والحكـم، وبوسـعه أن يصـدر أحكامـه بشـأن الآخريـن كمـا يشـاء.

أمـا ثالثهـا، فهـي كتابـة السـيرة بأثـر رجعـي، فمـن المعـروف أنّ السـير الذاتيـة تنطـوي علـى تفاعـل أو تواطـؤ بـين الماضـي والحاضـر، بحيـث يمكـن أن تفهـم أهميتهـا حقـاً علـى أنهـا كشـف عـن الوضـع الحالـي لكاتـب السـيرة الذاتيـة أكثـر مـن كونهـا كشـفاً عـن ماضيـه. وكنقـاد أولاً وكقـرّاء للسـيرة الذاتيـة ثانيـاً، فإننـا نحتـاج عـادة إلـى التذكيـر بهـذه الحقيقـة الواضحـة: حقيقـة أنّ أعمـال السـيرة الذاتيـة تُكتـب في الغالـب بأثـر

رجعي؛ وهنا تفقد السير الذاتية كثيراً من أهميتها، فنحن نحتاج إلى معرفة آراء وأحكام صاحب السيرة وقت وقوع الأحداث، وليس بناءً على صياغة لاحقة تُظهِر أنّ صاحبها كان حكيماً وواعياً بمغزى الأحداث عند وقوعها. وهذا ما يسمح لنا بالاستماع إلى خطاب ذلك الزمان بلغته، وأن نعيش التجربة كما تجلّت حينها ودون حاجة لعملية إعادة الصياغة بطريقة استرجاعية.

ومن ذلك ميل كثير من الشخصيات في الضفة الغربية هذه الأيام للقول بأنّهم كانوا واعين منذ البداية لمخاطر اتفاقية أوسلو، رغم أنّهم أيّدوها عندما تمّ الإعلان عنها والتوقيع عليها. ومن الأمثلة على الكتابة أو الحديث بأثر رجعي إصرار كثير من الشخصيات الفلسطينية التي قابلناها خلال مسيرة حياتنا على القول بأنهم توقعوا هزيمة حرب عام 1967 وسقوط واحتلال الضفة الغربية، رغم أن تصريحاتهم الموثقة في صحف تلك الأيام تعطينا صورة مختلفة. وعلينا هنا أن نفرّق بين أمرين: ميل بعض أصحاب السير للكذب، وبين الوقوع في فخّ الكتابة بأثر رجعي. ففي الحالة الأخيرة قد لا يكون الدافع الكذب والتزوير، وإنّما التهيؤات اللاحقة والمتخيّلة بفعل مرور الزمن.

أخيراً، غالبًا ما تكمن قيمة السيرة الذاتية فيما تضمره (ما لا تقوله)، وهو لا يقل أهمية عن قيمتها فيما تبرزه وتعلنه. هذا الصمت أو الإضمار غالباً لا يعود إلى قيود الحريات، بل إلى رغبة كاتب السيرة في إخفاء تفاصيل أو مواضيع معينة، سواء كان ذلك لحماية سمعته الشخصية أو سمعة المحيطين به، أو لتجنب الإضرار بالصورة العامة التي يسعى لنسجها عن دوره وشخصيته. وعليه، فإن كاتب السيرة يختار بعناية فائقة ما يريد إظهاره من ماضيه ليقدمه بأفضل صورة ممكنة، متوافقة مع المعايير والتوقعات المجتمعية. وفي هذا السياق، تصبح المعلومات المسكوت عنها «وثيقة» توازي في أهميتها المعلومات المُفصَح عنها.

ملاحظات على السير الفلسطينية

ذاع فنّ السيرة الذاتية – بشكله الحديث – في الكتابات الفلسطينية بعد عام 1948[15]، حيث دفعت النكبة المثقف الفلسطيني للإحساس بالحنين إلى ماضيه، فضلاً عن

15 هناك يوميات ومذكرات كُتِبت قبل النكبة لكنّ معظمها نشر بعد النكبة، بما فيها يوميات خليل السكاكيني نفسه والتي يعتبرها البعض، وفق معايير فنّ السيرة الحديث، بمنزلة أول سيرة ذاتية فلسطينية. بدأ السكاكيني كتابة يومياته التي شكّلت أساس كتاب «كذا أنا يا دنيا» في وقت مُبكّر من القرن العشرين (تحديداً في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر 1907)، إلا أنّها لم تنشر إلا عام 1955، على يد ابنته هالة التي انتقت مجموعة من اليوميات واستبعدت البعض الآخر.

الإحساس بالظلم والغبن. وهكذا، بدأت شخصيات أدبية وسياسية، من الطبقة الوسطى، تدوين ما عايشته من ذكريات وما اختبرته من أحداث ومآسٍ، وقد مثّل هذا تأريخاً لتلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الشعب الفلسطيني.

ومنذ منتصف الخمسينيات، انطلق قطار السير الذاتية الفلسطينية بتسارع ملحوظ، ونلاحظ اليوم نزعة تجتاح الفلسطينيين أينما كانوا في الوطن أو الشتات، لنشر المذكرات والسير الذاتية واليوميات، أو البحث عن أوراق ومخطوطات شخصية وعائلية غير مكتشفة بعد لنشرها. وفي هذا السياق، أصدر الفلسطينيون عشرات المذكرات والسير واليوميات في العقدين الماضيين.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، أصدرت «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» وحدها أعمالاً كثيرة بالعربية والإنجليزية، منها ثمانية مجلدات عن يوميات خليل السكاكيني، وكذلك سير رجائي بصيلة، ونجاتي صدقي، ومحمد عبد الهادي الشروف. كما نشر «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» في الدوحة، سلسلة من السير الفلسطينية ضمن مشروع «ذاكرة فلسطين»، منها سير: نبيل شعث، انتصار الوزير (أم جهاد - أرملة الشهيد خليل الوزير)، أبو ماهر اليماني، معين الطاهر. وكذلك صدرت العديد من السير عن دور نشر مختلفة، منها دور نشر عالمية وأجنبية مرموقة، مثل: إدوارد سعيد، سري نسيبة. وبعض هذه السير تقوم بنشرها الأحزاب مثل سيرة فائق وراد من منشورات حزب الشعب الفلسطيني.[16] وقبل ذلك وابتداءً من عام 1978، تبارى قادة حركة فتح، بدءاً من صلاح خلف (فلسطيني بلا هوية)، في كتابة ونشر سير عن تاريخهم النضالي.

ولعل السيرة الخماسية للكاتب والأديب فيصل الحوراني (الوطن في الذاكرة، الصعود إلى الصفر، زمن الأسئلة، الجري إلى الهزيمة، أين بقية الحكاية) تشهد على إقبال دور النشر لتقديم هذه الأعمال للقارئ العربي الذي أصبح ينتظرها بشغف، نظراً للمكانة التي أصبحت تحظى بها لديهم. فمما لا شك فيه أنّ المذكرات والسير السياسية تحظى بشعبيّة كبيرة بين الكتب التي تتناول موضوعات سياسيّة، وبعضها جافٌ وأكاديمي الطابع. فقراءة التاريخ على شكل رواية شخصية أسهل وأمتع من قراءة كتاب تاريخ تقليدي يموج بالسرد والتحليل الجاد.

16 عُدَّت سير الشيوعيين الفلسطينيين مصدراً مهمّاً لدراسة الحركة الشيوعية الفلسطينية (انظر ماهر الشريف «المذكرات مصدراً لدراسة تاريخ الحركة الشيوع ي ة في فلسطين» (في) كتاب عصام نصار وسليم تماري (محرّران) - مصدر سبق ذكره، ص125 – 140

تشكّل معظم السير الفلسطينية دليلاً على أن المذكرات الشخصية يمكن أن تكون أدلة ومصادر لدراسة الحياة السياسية الاجتماعية في زمانها، وأهمية الحاجة إلى الاعتماد عليها جنباً إلى جنب مع المصادر الأخرى لكتابة تاريخ فلسطين المعاصر، علماً أن عدداً غير قليل من الساسة والمثقفين الفلسطينيين سجلوا ذكرياتهم وأحياناً يومياتهم. جزء كبير من هذه المذكرات منشور، وعدد آخر في انتظار النشر.

بالنظر إلى السير الفلسطينية نلاحظ بسهولة طغيان السير السياسية على غيرها من السير الشخصية، والمقصود هنا قلّة السير ذات الطابع الأدبي والبعد الاجتماعي. وهذا المنحى تاريخي قديم، وتشهد على ذلك سِيَر نجيب نصار، الحاج أمين الحسيني، محمد عزة دروزة، إميل الغوري، موسى العلمي، عوني عبد الهادي، أحمد الشقيري، فوزي القاوقجي. ولاحقاً سير: صلاح خلف (أبو إياد)، جورج حبش، شفيق الحوت، بهجت أبوغربية، والقائمة تطول. ومع ذلك، حتّى السير الاجتماعية والأدبية والشخصية الفلسطينية التي لا تتوخّى ابتداءً الخوض في السياسية، تجد نفسها مبللة بالسياسة ومقحمة فيها رغماً عنها، وذلك ليس مستغرباً بحكم الظرف الفلسطيني الخاص من استعمار واحتلال ومقاومة وتشريد. وهذا نجده على سبيل المثال في مذكرات واصف جوهرية التي تعدّ أشهر سيرة فلسطينية اجتماعية، وكذلك تجد سيرة حسين البرغوثي الأدبية «سأكون بين اللوز» نفسها مضطرة للاشتباك مع الواقع الاستعماري القائم في مشاهد عدّة.

وكذلك طغيان السير التي يكتبها وينشرها الرجال مقارنة بالنساء. ولعلّ سيرة فدوى طوقان «رحلة جبلية: رحلة صعبة» هي الأشهر في عالم السير النسائية الفلسطينية، وقد صدر الجزء الأول منها عام 1985، ونالت اهتماماً واسعاً، ليس لأنها خطت خطوات راسخة في عالم فنّ السيرة، ولا لكونها سيرة صادرة عن امرأة، وقلائل من كتبن سيرتهن مقارنة بالرجال، ولكن لأنّها كانت أيضاً صريحة في البوح بالقيود التي تكبّل المرأة العربية، في حين كانت المرأة العربية تكتب فيه عن همومها بأسلوب مراوغ يعتمد اللمز والتلميح والإشارة.

وإذا كان كثير من الشخصيات الفلسطينية، كأقرانهم العرب، أحجموا وتردّدوا في تسجيل تجاربهم ومذكراتهم ساعة الحدث، فلم تحتفظ إلاّ قلة منهم بها، ناهيك عن قلّة الوعي بأهمّية التأريخ والحرص على الأرشيفات[17]. فمن الواضح أنّ هناك

17 دروزه، محمد عزة: مذكرات وتسجيلات مائة عام فلسطينية، دمشق، ،1984، ج1، ص13.

خصوصية فلسطينية تتمثّل في وجود الفلسطيني الدائم تحت سلطات احتلال وقمع، ما يمنعهم من التسجيل، أو يدفعهم لإخفاء الأوراق أو إتلافها عمداً خشية التفتيش والملاحقة. ناهيك بما جرى خلال النكبة من تشتّت وبعثرة ونهب للأوراق الشخصية[18]، وفي فترة لاحقة خشية غضب المتحكمين في القيادة ممن يثيرهم النقد.[19]

نجد الإجابة عن سؤال: من الذي يكتب اليوميات والسيرة الذاتية فلسطينياً؟ في أنّ معظمهم هم ممّن يتمعتون بأحد تمثّلات القوّة أو مزيج منها (المعرفة والثقافة، المال والطبقة والعائلة، السُلطة والفصائل والأحزاب، المكانة الاجتماعية). تاريخيّاً، اقتصر الأمر على مثقفي الطبقة الوسطى الذين أنتجتهم تجربة الحداثة المبكرة في المدينة الفلسطينية.

اتّسعت الدائرة لتستوعب التغيّرات والتحوّلات السياسية والاجتماعية والتعليمية التي نجمت عن النكبة، وهي التحوّلات التي أنتجت نُخباً سياسية واقتصادية وثقافية جديدة تختلف عن النخب القديمة التي كان قوامها كبار العائلات ورجال العلم والدين. وهكذا أصبح لأفراد من البرجوازية الصغيرة والنساء وقادة ونشطاء الحركات والأحزاب الجديدة (حركة فتح، القوميون العرب وغيرهم) حيّز في هذا المجال. بينما لا يزال عامّة الناس يفتقدون، إما بسبب محدودية ثقافتهم أو قدرتهم المالية، الفرصة لتوثيق أحوالهم اليومية وظروف معيشتهم. أي أنّ عامة الناس من الشريحة الأدنى من المجتمع من موظفين صغار ومزارعين وعمّال وربّات بيوت وما شابههم لا يتركون لنا شيئاً نركن إليه لكي نفهم حياتهم ونفهم الطريقة التي عاشوا فيها، والكيفية التي كانوا ينظرون بها إلى العالم المحيط بهم.[20]

إضافة إلى الثقافة والقدرة اللغوية والتعبيرية، يتعلق الأمر بوضع مالي يسمح بالتفرغ لهذا النوع من الكتابة والانصراف له بعيداً عن هموم المشاغل المعيشية اليومية

---

18 صالح عبد الجواد، «لماذا لا نستطيع كتابة تاريخنا المعاصر من دون استخدام التاريخ الشفوي؟ حرب 1948 كحالة دراسية»، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 16، العدد 64 (خريف 2005).

19 شفيق الحوت: عشرون عاماً في منظمة التحرير الفلسطينية. (أحاديث الذكريات 1984-1964)، مؤسسة الدراسات (1) الفلسطينية، بيروت، 1986 ص1.

20 هناك استثناءات قليلة ومنها مذكرات: محمود القاضي: شيء من الذاكرة، دمشق، دار كنعان، 1995، ط1؛ ذو الكفل عبد اللطيف: مذكراتي، قصة كفاحي من الثورة الفلسطينية الكبرى إلى حرب 1948، عمان، دار سندباد للنشر، 2000.

The Life of S m ‘Amr, Translated, annotated, and with an introduction by :1945–A Young Palestinian›s Diary 1941 .Kimberly Katz. (Foreword by SalimTamari). Austin: University of Texas press. First edition, 2009

المُلحّة[21]، وأيضاً بالقدرة على النشر من خلال امتلاك المال أو رأس مال اجتماعيّ (مثل الوجود في مناصب السُلطة أو الانخراط في صفوف الأحزاب والفصائل) ما يجذب كثيراً من «المثقفين» للشروع بكتابة سيرة عنهم طمعاً في جني الفوائد، في حين أن هناك أبطالاً فقراء لا يحظون بهذه الفرصة، ولا يتاح للقرّاء الاطّلاع على سيرتهم الغنية.

وبالنّظر إلى أجندة النشر في المراكز البحثية والثقافية، يحضر سؤال قريب؛ من الذي يُقرّر أنّ هذا الشخص بعينه يستحق أن تدوّن سيرته وليس سواه. وعلى نفس المنوال، ما هي السير التي تستحقّ بذل الجهود وصولاً لمرحلة النشر؟ ويبدو أنّ الجواب، في كثير من الأحيان، مرتبط بعلاقات القوّة والنفوذ وحسابات المصالح. وكذلك يُمكننا التساؤل أيضاً؛ لماذا يستأثر محرّرون بعينهم بالاطلاع على الأوراق الأصلية أو التسجيلات الصوتية أو الأرشيفات الشخصية لرموز ذات وزن سياسي أو اجتماعي. ناهيك عن ممارسة المؤسسات أو العائلات الرقابة على هذه الأرشيفات، وانتقاء ما يمكن الاطّلاع عليه من عدمه. على سبيل المثال، عندما انتقت هالة بنة خليل السكاكيني مجموعة من يومياته لنشرها في كتاب «كذا أنا يا دنيا»، لماذا اختارت يوميات بعينها وتركت أخرى، رغم أنّها كانت في الغالب بنفس الأهمية؟! [22]

ولعلّ أفضل مثال على علاقات القوّة المرتبطة بنشر السير الذاتية مرتبط بالقصة المجهولة لكتابة السير الخاصة بقادة فتح والتي بدأت عام 1978، عندما اقترح الصحفي الفرنسي الشهير إريك رولو على صلاح خلف (أبو إياد) نشر سيرته التي تشمل بالطبع ولادة ومسيرة حركة فتح. أبلغه أبو إياد بأنّه شخص كثير المشاغل بحكم مسؤولياته في الثورة الفلسطينية كمسؤول لجهاز الأمن الفلسطيني، رولو من جانبه طمأنه بأنّ كل ما عليه هو أن يجلس وإياه ويفتح قلبه وعقله لجهاز التسجيل، وأنّه هو الذي سيقوم بعد تفريغ التسجيلات بتحرير وتنسيق وإعداد المادة للنشر، وهذا ما كان فعلاً. صدر الكتاب بالفرنسية عام 1978 عن دار فايول، وقد أثار منذ لحظة صدوره أصداءً واسعة. إذ كانت المرة الأولى التي يتمّ فيها كشف النقاب عن

21 يروى عن الإمام الشافعي قوله «دخل الخادم عليّ فأخبرني بأن الطحين قد نفذ، فوالله قد كنت أفكر في ألف مسألة ومسألة فنسيتها كلها»، ويستدل من هذا القول أنّ الالتفات لحاجات الإنسان الأساسية ومتطلباته المعيشية اليومية يُشغل عن الجهود العلمية والثقافية.

22 نعرف أهمية باقي اليوميات لأنّها نُشرت كاملة في ثمانية مجلدات تباعاً في وقت لاحق بدءاً من عام 2003 (عن مركز خليل السكاكيني ومؤسسة الدراسات المقدسية).

قصة حركة فتح السرية (المؤسسون والتأسيس والتطور والتحولات والأحداث الكبرى في تاريخ صاحب السيرة وتاريخ الحركة).

بحكم طبائع الأمور كانت السيرة تركّز على حياة صاحبها ودوره، وهذا ما أثار بعض الغيرة من رفاقه في قيادة الحركة، ولذلك أطلقت هذه السيرة شرارة كتابة السير الذاتية للقادة الآخرين، ومن هنا اهتم ياسر عرفات بالمؤلفة هيلينا كوبان Helena Cobban التي كانت في مرحلة إعداد كتاب عن منظمة التحرير لكي تبرز دوره.[23] ولكنّ الكتاب كان عكس ما يأمل ، يبرز دور خالد الحسن، بحكم ثقافة الحسن السياسية الواسعة ودماثة أخلاقه والتي أثّرت على المؤلفة كوبان، ومرة أخرى حاول ياسر عرفات استمالة أحد الكتّاب الغربيين آلان هارت Alan Hart لكتابة قصة فتح من خلاله. ولهذا الغرض وفّر له كل الإمكانيات بما في ذلك السفر معه بطائرته الخاصة، وحضوره أحد الاجتماعات للمجلس العسكري للثورة، لكن مرة أخرى، كان الإصدار أقل من التوقعات فتمّ إصدار نسخة جديدة أخذت بعين الاعتبار المطلوب. وفي هذه الأثناء، نُشرت الترجمة العربية لكتاب صلاح خلف بعنوان يختلف عن الطبعة الفرنسية.

وفي السياق نفسه من الصراع على التأريخ للحركة من خلال السير الذاتية، وثّق أبو جهاد سيرته التي سجّلها وحرّرها محمّد حمزة. وهو اسم مستعار لسمير غطاس، وهو ناشط مصري في الحركة الطلابية المصرية في أوائل ومنتصف السبعينيات. دُفِعَ بالمخطوطة إلى أحد مطابع مدينة عمّان، وعند الانتهاء من طبعها في الأول من كانون الثاني/يناير1986 تمّت مصادرة كل النسخ عدا نسخ قليلة تم تهريبها وتداولها سرّاً،[24] غير أنّه لم يتسنَّ للجمهور الاطّلاع على هذه المخطوطة إلا في عام 2015.[25]

في هذه الأثناء، كان أبو مازن قد أنهى في عام 1985 مذكّراته التي كانت تتألّف عكس مخطوطة أبي جهاد الصغيرة من مئات الصفحات، غير أنّ هذه المذكّرات

23 نشر الكتاب بالإنجليزية عام 1984 بعنوان The PLO: People, Power and Politics وترجم للعربية في نفس السنة بعنوان «المنظمّة تحت المجهر».

24 رغم أنّ أبا جهاد لم يركّز في هذه السيرة على دوره حصراً إذ انصب اهتمامه على توثيق لحظة التأسيس والبدايات.

25 أي بعد 27 سنة على طباعتها و25 عاماً من اغتيال أبي جهاد في تونس (نيسان/أبريل 1988). وذلك في «مجلة الدراسات الفلسطينية» بعنوان «خليل الوزير، حركة فتح–البدايات»، «مجلة الدراسات الفلسطينية»، العدد 104 (خريف 2015)، ص 51–130.

لم ترَ النور، ورغم أننا لا نعرف الأسباب الحقيقية وراء عدم نشرها منذ ذلك الحين، إلا أنّه يمكن التخمين بأنّ مصير سيرة أبي جهاد كان على الأقل واحداً من الأسباب.

تقف دوافع عديدة خلف الرغبة بكتابة ونشر أعمال السير الذاتية الفلسطينية، ولعلّ أول هذه الدوافع هو التأكيد على وجود شعب فلسطيني يمتلك هوية راسخة، ونجد هذا بشكل جليّ في سيرة موسى العلمي المنشورة بالإنجليزية بغلاف يعرض مشهداً لمدينة القدس تتوسطّه قبة الصخرة، تحت عنوان «فلسطين وطني: قصة موسى العلمي». وكذلك أراد الفلسطينيون من كتابة سيرهم توثيق ما يمكن تسجيله من ماضي بلادهم المسلوبة، وحتّى توثيق مشهد راهن لكنّه يتعرض للتلاشي السريع ضمن الظرف الفلسطيني الخاص. وكذلك تؤدّي السيرة الفلسطينية في كثير من المرّات مهمّة نقل التجربة عبر الأجيال تلافياً للوقوع في أخطاء الماضي من جديد (مثل شفيق الحوت وبهجت أبوغربية). وبعض من كتبوا سيرهم من الفلسطينيين أرادوا تسجيل شهادتهم للتاريخ، إذ عاصروا ظرفاً سياسياً خاصّاً أو انخرطوا بأنفسهم في تجارب سياسية أو نضالية، والبعض من هؤلاء قدّم شهادته تبريراً أو دفاعاً عن تجربته (مثل الحاج أمين الحسيني وأحمد الشقيري).

وللفلسطينيين بالطبع- مثل غيرهم - دوافع ذاتية لكتابة سيرهم الشخصية، ومن ذلك رغبة صاحب السيرة في تخليد نفسه وإبراز دوره التاريخي اعتقاداً منه أنّ قصة حياته جديرة بالمشاركة. وأيضاً حاجته للعثور على معنىً لوجوده من خلال الكتابة والنشر، ولربما تعني كتابة السيرة بالنّسبة لبعض الأشخاص استعادة حياتهم الماضية، وتخليدها في أنفسهم. ومن الدوافع الذاتية أيضاً، رغبة صاحب السيرة بتدوين تجربته حرصاً على إبراز حياته العلمية والعملية (حاتم كمال مثالاً)[26]. وقد يذهب البعض لكتابة السيرة الذاتية لشخصية معينة؛ بهدف التأكيد على علاقته المتميّزة بصاحب السيرة، فيبرز ويعظم من دورها الذي فيه إبراز لدوره نفسه. وأخيراً، هناك العديد ممّن كتبوا يومياتهم أو سيرتهم الذاتية ولم يكن الهدف بالأصل نشرها وإنّما التفريغ النفسي، فكما قال طه حسين فإنه كتب سيرته لا لينشرها وهو الذي قاوم مراراً اقتراح

26 صالح عبد الجواد (إشراف وتقديم)، تذكرات حاتم كمال، منشورات جامعة بيرزيت، مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني، 1995.

النشـر، وإنّمـا «ليتخلـص مـن خـلال إملائهـا مـن بعـض الهمـوم الثقـال والخواطـر المحزنـة».[27]

تتوجّس السير الذاتية العربية عموماً من الخوض فيما هو محظور الحديث عنه في المجتمعات الشرقية (الثالوث المحرّم: الجنس، الدين، السياسة)، إضافةً للخشية من التعرّض للتوتّرات المناطقية والطائفية والعشائرية، فضلاً عن خصوصيات الأسرة والعائلة، حيث يجري تقديس صورتيّ «الأب» و «الأم» وإحاطتهما بهالة لا تتفق وَمنطق النفس البشرية المعقّدة. يشرح أحد المؤرخين الفلسطينيين كيف حرَّر سيرة امرأة فلسطينية عظيمة بكل المعايير، ومع ذلك فإنّ كل ما كُتِب في السيرة تمّ «تنظيفه» بناء على طلب من صاحبة السيرة من أي شيء له بعد عائلي شخصي قد يلقي بعض الظلال غير المريحة. تقف خلف هذا كله منظومة معقّدة من الرقابة: الرقابة الأمنية والحكومية، الرقابة المجتمعية، رقابة المؤسسة الدينية، الرقابة الذاتية.

لكنّ الأمور تتفاقم في الحالة الفلسطينية استجابة لخصوصية الظرف السياسي، بحيث تصير كتابة السيرة السياسية مهمّة شاقّة ومُتعبة، إذا ما أراد الكاتب توخّي الصدق والإخلاص والمهنية. ويمكن استعراض الخصوصية الفلسطينية عبر طيف واسع يبدأ بالخوف من الاحتلال نفسه عندما يتعلق الأمر بالقضايا الأمنية وقضايا سياسية مُحدَّدة. وكذلك الخوف من سطوة الجهات الرسمية الفلسطينية. ثمّ، ولعلّه أحياناً الأكثر أهمّية، الخوف من الثقافة السياسية المجتمعية التي تحرّم الخوض في قضايا كثيرة مثل قضية «التعاون مع المحتل»، حيث تحضر هنا الخطوط الحمراء الخاصّة بسمعة أشخاص وعائلات بعينها،[28] انطلاقاً من النظرة «المؤسِفة» التي توصَم بها العائلات التي تضمُّ أفراداً عملاء، بحيث تدفع جماعة كاملة ثمناً لخطأ فرد واحد اسمه لصيق بها. ويجب التذكير هنا إلى أنّ التعاون مع الاحتلال لا يقتصر على الجوسسة والتخابر إنّما يمتدُ إلى جوانب «تسريب الأراضي وبيعها للاحتلال» و «الفساد السياسي» و«التعامل الاقتصادي في ملفات محدّدة» وغير ذلك.

أيضاً، يفرض المجتمع رقابة عامة وغير واعية على الصورة «المثالية» للرواية الوطنية، وهي الصورة التي يتبناها المجتمع عن نفسه ويعتقد بها. إذ يرى كثير من العامّة

27 طه حسين، الأيام، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1992، ص7.

28 كتب ناقد فلسطيني راديكالي شهير سيرة واحدة من أعرق العائلات الفلسطينية، ولم يتطرّق أبداً لإحدى شخصيات العائلة المعروفة على نطاق واسع بتعاونها مع المستعمر البريطاني خلال الثورة الفلسطينية الكبرى 1936.

نقد أي من الكتابات لهذه الصورة فعلاً يُهدّد القيم والحقوق الوطنية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ البعض ينظر إلى المونوغرافات الخاصة بالقرى الفلسطينية المدمّرة (Memorial Book) بوصفها سيرة جماعية[29]، نلاحظ نزوع هذه الكتب إلى التمجيد والتبجيل مع إغفال الجوانب السلبية. وكذلك لا يُمكن تناول حياة قادة سياسيين لهم شعبية مجتمعية، أو قادة فصائليين ترفض قواعدهم الحزبية تعريضهم للنقد. وكذلك، يصعب تناول قضايا التحرش الجنسي التي يتعرّض لها الأسرى والأسيرات في سجون الاحتلال.[30]

رغم هذه الصورة القاتمة للمحرمّات، فقد وُجد ومنذ البداية من تجرأ وجاهر بنقده المجتمعَ بكل شجاعة ووضوح، ومن هؤلاء نجيب نصّار، في سيرته التي أخذت شكل رواية، الموسومة بـ «رواية مفلح الغسّاني»، الذي انتقد عملية البيوع في شمال فلسطين من قبل الأعيان (خصوصاً بعض العائلات اللبنانية التي تعتبر من كبار ملّاك الأراضي في شمال فلسطين) عن جشع ومعرفة. وكذلك خليل السكاكيني في سيرته الذاتية «كذا أنا يا دنيا»، الذي انتقد الطائفية والتعصّب وانغلاق النخب في أسر المصالح العائلية. وكذلك سُبات الأمّة وقوّة التقاليد البالية. وعلى نهجهم مضى عدد من كُتّاب السير الفلسطينية؛ شفيق الحوت، أنيس الصايغ، إدوارد سعيد، مريد البرغوثي، هشام شرابي، وليم نصار، فدوى طوقان وغيرهم.

أمّا الإسلاميون الفلسطينيون، فقد بدؤوا متأخرين في كتابة سيرهم الذاتية أو الغيرية مقارنة بباقي التيارات السياسية الأخرى. ولم تحظَ سيرهم بالاهتمام الذي تستحقه، بل إنها ووجهت بالصمت والتجاهل، عدا تلك التي نشرت على منابرهم الثقافية والإعلامية. كما أنّها لم تحظَ بدراسات نقدية في معظم الكتب التي عالجت موضوع السير في فلسطين، وهذا المنحى الإقصائي ليس مستغرباً؛ كون سيرهم تقوم على مبدأ «الإسلام هو الحل»، وتغرس ثقافة المقاومة، وتنقل الخبرات بما فيها الميدانية لأشكال العمل المقاوم، الذي يندرج عند البعض دون أن يتم الإفصاح عن ذلك ضمن الخصومة أو حتى العداوة مع «الإسلام السياسي». وإذا أردنا أن نُحسن

29 روشيل ديفز، الكتب التذكارية الفلسطينية والسير الذاتية الجماعية في كتاب عصام نصّار وسليم تماري (محرّرين)، مصدر سبق ذكره، ص 153 - 180.

30 من بين الاستثناءات لذلك كتاب «أحلام بالحرية» لعائشة عودة، وهو مثال على امرأة مناضلة كتبت سيرتها خلال تجربة السجن في مطلع الاحتلال بشجاعة، ولم تخفِ أنها شعرت بالخوف خلال مرحلة التحقيق العصيبة والقاسية، وتحدّثت عن تجربتها الخاصة مع التعذيب الجنسي على يد المحققين الإسرائيليين.

النية فقد يكون لذلك علاقة بحجم الانفتاح المحدود لدى «مثقفي اليسار» على أدبيات الحركات الإسلامية.

ويلاحظ على سير الإسلاميين أنها فسرت الأحداث بتفاؤل، نتيجة استلهام الدين الإسلامي، والتركيز على الإرادة المدعومة باحتمالات التدخل الإلهي. وأعتقد أن هذا الميل الثقافي والديني العام يحدد نوعاً ما من انفتاحهم الثقافي العالمي (حيث الثقافة تتجلى حصراً في إطار إسلامي). كما أنهم تجنبوا التطرق لمواضيع اجتماعية شائكة نوعاً ما (كما في أعمال فدوى طوقان، جبرا إبراهيم جبرا، محمود شقير، إدوارد سعيد).

وفي العقود الأخيرة، نُشرت عشرات السير الذاتية أو الغيرية لقادة حماس السياسيين والعسكريين.[31] ومنها السير السياسية لإبراهيم غوشة وعدنان مسودة وموسى أبو مرزوق، أو سير العسكريين كعماد عقل وحسام بدران وعبد الله غالب البرغوثي وسليم حجة. وفي بعض الأحيان قدّم لهذه السير قادة كبار من حركة حماس، كخالد مشعل وإسماعيل هنية وإبراهيم حامد وغيرهم من قادة الحركة، ما يدل على حجم الأهمية التي بدأت الحركة توليها لهذا الجنس الأدبي بوصفه مصدراً موثوقاً لكتابة التاريخ، وأداة مهمة في الترويج لها.

ونظراً لضيق المساحة المخصصة لهذا الجانب من السير الذاتية، فقد ارتأينا دراسة نموذج واحد من نماذج السير الإسلامية، لا لأنها مثال معبر عن أدب السيرة لدى الإسلاميين، فهي ليست كذلك، وإنما لأهمية صاحبها في تاريخ ومصير الحركة، وهي سيرة «الشوك والقرنفل»، السيرة الذاتية ليحيى السنوار، التي أنهاها في سجن بئر السبع عام 2004.

ترك لنا القائد السنوار سيرته الذاتية في شكل ملحمة بطولية سردية ودرامية، تماثل الرواية في بنائها، وقد اكتملت هذه الملحمة وبلغت ذروتها باستشهاده. يؤكد السنوار أن أحداث هذه «الرواية» حقيقية، رغم تباين شخصياتها بين الواقع والخيال. وتغطّي هذه السيرة زمنياً فترة حاسمة تمتد من مقدمات حرب عام 1967 وحتى اندلاع الانتفاضة الثانية عام 2000.

---

31 أدين بالفضل في الحصول على ما لا يقل عن 15 دراسة من سير الإسلاميين(نسخة إلكترونية pdf)، أسهمت بشكل مباشر في كتابة هذا الجزء الخاص بسير الإسلاميين، للباحث المتخصص في مجال السير الأستاذ علي موسى، كما أنوّه إلى مقابلتي معه لأغراض كتابة هذا الجزء.

وكأيّ سيرة كُتبت في الأسر، (ومنها سير نشطاء في حماس، مثل: عبد الله غالب البرغوثي وسليم محمد حجّة)، عمل السنوار ورفاقه في السجن بدأب كبير على إخفاء هذه السيرة عن السجانين، وتأمين وصول نسخة منها إلى العالم الخارجي. ولمواجهة خطر مصادرة أو ضياع السيرة خلال المداهمات والتفتيش الدوري الذي تنفّذه مصلحة السجون الإسرائيلية (شاباس)، نُسخت السيرة وأُخفيت بعشرات النسخ. هذا الجهد المكثّف كان يهدف إلى ضمان بقاء نسخ متعددة داخل السجن، وإخراج نسخة واحدة على الأقل لتُحفظ في الخارج.

«الشوك والقرنفل» تروي لنا مرحلة مهمة من مراحل العمل المقاوم وبدايات سيرة حركة «حماس» وريادتها لهذه المرحلة من المقاومة. وهي لا تفترض نشأة حماس من عدم، ولا تجحد الجيل القديم حقه، ولا تغفل عن الدور المهم الذي لعبته التنظيمات والفصائل التي انضوت تحت راية منظمة التحرير الفلسطينية، وقاتلت لعقدين قبل أن تولد حماس .

قدمت رواية «الشوك والقرنفل» فحصاً عميقاً للخلفيات الذاتية والموضوعية التي أسهمت في ميلاد حركة حماس، موضحةً أنّ السياسات القمعية الإسرائيلية كانت المحرك الأساسي لنشأتها. وقد أدى هذا إلى ولادة مرحلة مقاومة جديدة تتطلب أساليب مبتكرة وغير تقليدية للكفاح المسلح. تربط السيرة قصة المقاوم الفرد بالتغييرات الهيكلية في المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال.

من اللافت أن الرواية لا تُظهر العداء للرئيس المصري جمال عبد الناصر، على عكس ما هو شائع في أدبيات الإخوان المسلمين. تعزز هذه النقطة الفرضية القائلة بأن السنوار التحق بـ «حماس» مباشرةً دون التدرج عبر تنظيم الإخوان. والأهم، أن السنوار نجح في إضفاء صبغة إنسانية على مجمل سرده.

ختاماً ، أرجو أن ينال هذا العمل إعجاب القرّاء، وأن تبلغ هذه السيرة غاية نشرها، بما يخدم على المدى البعيد قضية شعبنا الفلسطيني.